

في الأدب المقارن

التفاوت والتشاور

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ نغري أبو السعود

حب الحياة كائن في طبيعة كل حي، والرضى بها والاطمئنان إليها والاقبال عليها شعبة جميع الأحياء مادامت بنياتهم صحيحة وحاجاتهم حاضرة، والمرح واللعب غايتهم الأخيرة مادامت غرائزهم مقضية اللبانات مشبعة المطالب. ولما كان الإنسان يمتاز بالخيال والفكر فإن له مطالب نفسية غير مطالب جسده الغريزية؛ يرضى ويرتاح إذا قضاه، ويقنط ويكتئب إذا أخطأها؛ وليس يشكو الحى أو يألم، وليس يسخط الإنسان أو ينقم، إلا أن يندو وهو سقيم الجسم أو محروم الغريزة أو ممنوع المطالب. فحب الحياة والاقبال عليها والرضى عنها هي الحال الطبيعية العادية، وذم الحياة والعزوف عنها والسخط عليها حال طارئة استثنائية، نتيجة لامتناع وسائلها وعدم موائمة أسبابها. فالتشائمون قوم قست الحياة عليهم لحرمتهم قليلاً أو كثيراً مما حبت به سواهم، فثاروا عليها وكالوا لها قسوة بقسوة، وجزوها على حيفها بمرير الدم والتفتيد؛ فلما نرى بين المتشائمين الزارين على الحياة والأحياء رجلاً صحيح البدن معتدل المزاج محدوداً واثقاً بنفسه، بل كلهم بمن أكسبتهم الوراثة والنشأة والبيئة أجساماً معتدلة أو أعصاباً مختلة، أو ألحت عليهم الخطوب لحطمت مساعيهم، أو اقتنعوا بعجزهم عن مفاولة الأحياء في ميدان الحياة، فأورثهم ذلك حساً مرهقاً متيقظاً إلى مواطن الشر والقسوة والنقص في الحياة، فقعدوا يَبْزُون لها وللنقبيلين عليها السهام.

وفي الحياة مواطن للنقص لا تنحصى، يهتدى إليها الناقلون عليها بلا عناء، وهي تعرض مثالها عليهم وتضع أصابعهم على نقائصها؛ بيد أن المتفائل المعافى الجسم الناجع المسعى قلباً يلتفت إلى تلك المساوىء، وإذا التفت إليها فبرهة قصيرة يأتي فيها

إذا شئت. نشوة عارضة كنشوة الخمر. وكونها عارضة... من فعل الخمر أو بتأثير الحسن لا يمنع أن الشعور الذي تحدثه صادق في حينه. وقد يلج المرء على نفسه بالايحاء إليها حتى يشعر بما يشعر به العاشق الحقيقي. فيكون شعوره أيضاً في حينه صادقاً. ولكن بعد ذلك.. بعد أن يثوب الرشد الذي أضاعه الخمر، ويرجع الاتزان الذي أفسده منظر الحسن، أو تعود الحالة الطبيعية التي اضطربت من جراء الايحاء. بعد ذلك يذهب ما جاءت به النشوة الوقتية، وقد أفادني علاج نفسي ورياضتها على أن تستغرقها الحالة التي أتمثلها. نعم بقيت عاجزاً عن العشق وفي أمان من جنون الحب فإن هذه طباع لا حيلة لي فيها، ولكنني أصبحت بفضل هذه الرياضة أستطيع حين أفكر في شيء أو أكتب شيئاً أو أشغل بأمري أن أذهل عن الدنيا. فلا أسمع ولا أرى، ولا يستطيع شيء أن يصرفني عما أنا فيه.. خرجت بفائدة على كل حال. وكثيراً ما ترى الإنسان يطلب شيئاً فيخطئه ويفوز بغيره..

فقال: «ولكنك محروم وهذا فظيع»

قلت: كلا. أنا على تقيض ذلك سعيد. مستريح من وساوس الحب وبلا بله وهو اجسه وتحريفه، وفي وسعي دائماً أن أمتع نفسي بالحسن وأنا هادى الأعصاب مدرك لما أنا قاتر به بلا اسراف أو غمط في التقدير، ومن غير أن أنقص على نفسي هذه المتع بعد ذلك بالوساوس والخيالات وما إلى ذلك مما يكابده المحبون... وأقول لك الحق إنني أصبحت لا أصدق من يزعم أن حبه على نحو ما يصف الشعراء ومن اليهم. ولا أعتقد إلا أن ذلك نشوة يطيلون عمرها بالايحاء. والايحاء يا صاحبي - إلى النفس وإلى الغير - عامل خطير الاثر في حياتنا. صدقت.

قال: «ولكنني جربت»

قلت: «ما أظن بك إلا أنك تخدع نفسك. وهذه سنة الإنسان أبداً. عد إلى نفسك وحلل خوالجك بلا خوف من مواجهة الحقيقة ولا جزع ولا اشفاق. اجعل من نفسك شخصاً مستقلاً. طبيياً يفحص حالة ولا يعنيه إلا ما يهتدى إليه. وانظر ما يكون.. ثم تعال واخبرني. وأنا واثق أن النتيجة ستكون مطابقة لما حدثتك به عن نفسي»

فوعده أن يفعل.. ولكنه لم يعد إلى

ابراهيم عبر القادر المازني

القرية وإشباع الغرائز النهمة منها ، تناسياً لمنغصاتنا وتخلصاً من
لذات التفكير في نقائصها ؛ فالمتشائمون المعتزلون للحياة الناقون
على الأحياء الساخرون من المجتمع ، والمتشائمون المستهترون
باللذات المتكلمون بتقاليد المجتمع وأخلاقه ، الخارجون على عرفه
المصادمون له في عقائده ؛ أولئك وهؤلاء سيان في التشاؤم
ورفض الإيمان والعزاء النفسى ، أو قل هما طرفان متباعدان
بينهما الوسط الذى يحتله المتفائلون الراضون بالحياة على علاقتها ،
المتسلون بنعماتها عن بأسائها في قصد واعتدال ، المتشبهون ببعض
مثلي العليا

على أن المتشائمين أنفسهم لا يخلون من عزاء وإن توهموا
سوى ذلك ؛ وأشدهم إيماناً في التشاؤم لا ينضب من نفسه حب
الحياة ، وعزاء أكثرهم هو ذلك الفن الذى يزاولونه ، هو أدبهم
الذى يودعون فلسفتهم المتشائمة وخطراتهم القائمة ، فى كتابة
أفكارهم تلك راحة لنفوسهم المعذبة وشفاء لغرائزهم الظائمة ؛
ولولا أنهم ما يزالون يحبون الحياة فى صميم أفئدتهم ، على رغم
إعلانهم الحرب عليها ، لما لبثوا بساحتها ؛ ولو أنهم يزدرونها
ويزدرون أبناءها بقدر ما يزعمون ، لما حفلوا بتدوين آرائهم
فيها وعرض تلك الآراء على أبنائها ؛ فلسفتهم المتشائمة تناقض
نفسها بنفسها

فإذا كانت فلسفة تصدق أو تفسير للحياة يُقبَل ، فليست
فلسفة المتشائمين بالتي ترجح وتفسر الحياة ، وليست رسالتهم التى
يودونها إلى الإنسانية بالتي تُقبَل ، لأن فلسفتهم كما تقدم تناقض
نفسها ، وتناقض طبيعة الحياة التى بثت حبها فى جبال أبنائها ،
ومهدت من متعاتها ما يرجح شوائبها ، وزودت بنبيها بالسلاح
اللازم لهيجائها . ليست فلسفة المتشائمين بالمقبولة فى جملتها ،
وإن احتوت فى أطوائها من صائب النظرات وبديع اللغات
وآثار الفكاهة والسخر والوصف والتحليل ما يمتاز به أصحاب
ذلك المزاج ، وما يهديهم إليه حسهم المرهف المستورف وخيالهم
المتيقظ المسترسل

وفلسفات المتشائمين فى محتات الأمم والأجيال متماثلة ،
ومواضيعهم متقاربة : إسهاب فى شرح مظاهر تنازع البقاء ،
وإطئاب فى ذكر لئيم الطباع فى الأحياء وفى الإنسان خاصة ،
وإصرار على تذكر الموت وكرور الزمن وحلول البلى ، وتهويل

ويعتبر ، ثم يعود إلى ما كان فيه من استمرار لمتعات الحياة
واجتلاء لمقاتتها ، متعزياً بهذه المقاتن والمتعات عن تلك النقائص
والمقايح ، باذلاً جهده لتوفير السعادة لنفسه ولمن حوله ، وتخوياً
ما يستطيع من أسباب الشقاء ؛ على حين يظل المتشائم أمام
ما يروعه من مساوىء الحياة قائماً ، لا يريد أن يحول بصره إلى
سواها ، بل يهول تلك المساوىء كما يسول له حسه المرهف
وخيله المفرق .

والأدباء وغيرهم من رجال الفنون عادة أرهف حساً
وأبعد خيالاً ممن عداهم ، وما من أديب إلا تتجسم له مقايح
الحياة جهمة مقرزة فى فترة من فترات حياته ، فتعافى نفسه ،
وينقم عليها وعلى نفسه وعلى الأحياء جميعاً ؛ فأما من كان متفائلاً
بطبعه معتزلاً بنفسه واثقاً من قدرته على خوض وغى الحياة ،
فصرعان ما يخرج من تلك الغمّة وتتصرف فيه دفعة الحياة القاهرة ،
فيلتفت إلى ما بالحياة من مباحج بجانب ما بها من مأس ، ويطلب
العزاء ببعض تلك عن بعض هذه ، ويستن لنفسه مثلاً أعلى
جديداً فى الحياة ؛ وأما المتشائم المحس بوطأة الحياة الثقيلة على
جسمه المتعب وأعصابه المنهوكه ونفسه الخائرة ، فيرفض كل
عزاء ويأبى كل إيمان ويسخر من كل مثل أعلى

فالفرق الرئيسى بين المتفائل والمتشائم هو أن الأول يرضى
العزاء والثانى يرفضه ، والأول يؤمن بمثل أعلى والثانى يأبى
الإيمان بشئ ، فالمتشائم يرفض الدين فيما يرفض ، فالتشاؤم
والدين ضدان لا يلتقيان : التشاؤم إزراء بالحياة وإنكار لجذواها
وتحقير لأبنائها ، والدين يبشر بجدوى الحياة الصالحة ويبث
العزاء فى النفوس عن آلام الحياة . وما كانت الديانات الأولى
كديانات المصريين والفرس إلا محاولة حاول بها الإنسان أن
يفسر ما راعه من تجاوز قوى الخير والشر فى الحياة ، وأن
يتعزى بجانب الخير عن جانب الشر منها ، أما والتشاؤم هو فقد
الإيمان بالحياة ورفض العزاء عن ضرورها ، فالتشاؤم والدين
نقيضان ، ولا ترى متشائماً إلا يُسر الإنكار للدين أو يعلنه ،
ولا مؤمناً معتصماً بدينه قد هوى فى لهوات التشاؤم

وليس فقد الإيمان بالحياة ومثلي العليا - أو التشاؤم - ينهى
بصاحبه فى كل حالة إلى الإسراف فى رفضها واعتزالها ، بل هو
ربما أدى إلى إسراف مناقض لهذا : إسراف فى انتهاب لذاتها

يضعف الإنسان إزاء جبروت القدر ، وتصوير لنفاق المجتمع وجور أنظمتها ، وتحقير للمرأة وموازنة بينها وبين الحياة ؛ وآراؤهم في كل ذلك مرّدها إلى اضطراب تكوينهم وتزعزع نفقهم بأنفسهم وحرمانهم من شتى مطالب الحياة ؛ ففلسفة المتشائمين لا تدلنا على حقائق الحياة والكون ، بمقدار ما تدلنا على نفوس أصحابها وأمزجتهم وعوامل تكوين أذهانهم

فهم يحزّعون لمراى تنازع البقاء. لأحاساسهم بأنهم عزّل ضعفاء ، وينحون على المجتمع بقوارع الكلم لأنهم عاجزون عن الانغمار فيه ونيل الخطوة والصدارة به، ويذكرون الناس بالموت والدثور لأن الناس يتمتعون دونهم بالطيبات ، فهم يُسكّنون أنفسهم بتكرار القول بأن تلك الطيبات عما قليل ذاهبة ، ويخوفون الناس بجبروت القدر لأن غيرهم يتمتعون بالقوة والاقترار ، فهم يلوحون أمام أعينهم بالقدر الذى يتلاعب بهم ويضحك من تديريهم ، ويرمون المرأة بالقدر والتقلب لأنها تنق لغيرهم ، ويجاهرونها بازدرائهم إياها لأنهم يُسرّون الاحساس بازدرائهم إياهم وإعراضها عنهم .

ولما كان مرّد المزاج السوداوى المتشائم إلى عوامل فردية محض ، من وراثة أو بيئة ، يظهر المتشائمون في شتى الأمم والأجيال متفرقين لا اتصال بينهم من مدرسة أو مذهب ؛ على أن مسحة التشاؤم تطفئ عادة في آداب عصور الأدبار السياسى والضيق الاقتصادى والفوضى الخلقية ، فيسود الشك والرفض والتحكم المرير ، كما كان الشأن في الأدب الروسى تحت الحكم القيصرى ؛ كما أن صبغة الايمان والبشر والتفاؤل تغلب في عصور الرخاء والنجاح والمغامرة ، وهى الصبغة التى سادت الأدب الاغريقى في عصره الذهبى عقب الانتصار على الفرس . فلما تلا ذلك عهد الادبار ظهر السخر والشك ومذاهب الرفض والاعتزال من جهة ، ومذاهب الاستهتار والاباحية من جهة أخرى

ولعل أشد أدباء الانجليزية تكبرا على الانسان وتهكما بمساعيه وتهوينا لشأنه هوجونانان سويقت ، وهو أديب نشأ نشأة ضنكة مقلقة ، ولازمه دام في أذنه جشمه آلاما مبرحة ، وما زال حتى طغى على عقله في أواخر حياته ؛ وحالف الاخفاق مطامحه السياسية وصاحب النحس غرامه ، فلم يبق له إلا الانزواء في عزله

وزعيم التشاؤم في العصر الحديث توماس هاردى ، الذى كانت أشباح الموت والبلى والقدر لا تبرح ناظره ، وكان لا يمل تكرار موضوعه الوحيد في شتى قصائده وقصصه : موضوع ضعف الانسان وقلة حيلته وعبث مسعاه ، حبال ضربات القدر الأعمى ، ودوران رحى الزمن الطحون ، فكان دائما يتفنن في اختراع المواقف المفجعة والظروف المنحوسة ، يتخذ مشاهدتها في المقابر والبرارى وفي الأيام الداجنة الكالحة ، ويطيف أشخاص روايته بين الموتى ، ويُنطق الموتى في أشعاره . ويتعالى في تصوير فجائع الحب : بين القدر والسلو والنسيان والغيرة وجفاف الجمال ؛ فأشعاره لا تكاد تنتقل بك من غمة إلى غمة ، ولا من محنة للانسان إلا إلى انتصار وحشى للأقدار عليه

ومعاصره أو خليفته في هذه النظرة المتشائمة إلى نصيب الإنسانية في الحياة هو هاوسمان ، الذى كان يحاكيه كثيرا في اختيار مواضيعه وطريقة معالجتها وإجرائه الحديث فيها بين الأحياء والأموات . ومن نماذج ذلك الضرب من شعر التشاؤم قوله : - أما برحت خيلى تحرث الأرض كعهدى بها ، إذ أناحى أسوقها وأسمع صليل شكائهما ؟ - بلى ماتزال تنقل خطاها وشكائهما تصل ، ولم يتغير شيء برغم أنك قد رقدت تحت الأرض التى كنت من قبل تحرثها - أو ماتزال الكرة تتراعى ويتسابق خلفها الرفاق على شاطئ النهر ، وإن أك لا أستطيع اليوم نهوضاً ؟ - نعم تتراعى الكرة بينهم وكلهم باذل في اللعب جهده ، وذلك مرمام قائماً وحارسه لا يننى - وفنائى التى شقّ على فراقها ، أسمنت البكاء واستطابت طعم الغمض ؟ - نعم هى ناعمة في خدرها ، فم أنت وقر - وهل

رفضها ، لاستعصاء سبلها على الكفيف المجذور ، إلا أن يبيع كرامته ويهدر حياته . وما أطار خياله إلى طيبات الفردوس إلا حرمانه من طيبات الحياة وطول نزوع نفسه إليها . وما كان وصفه لمتعات الخلد إلا إرضاء لشهواته المخمدة تحت رماد التوقر والتشف . وما كان تأليفه رسالة الغفران أو اتخاذ الخلد مسرحاً لها إلا تنفيساً عن مكتوم نواذعه ؛ وبفضل هذه النوازع المكبوتة خلّف المعري الكفيف أثراً من آثار الخيال فريداً في اللغة ، كان المبصرون من أدباء العربية منصرفين عن مثله

والمعري نسيج وحده في التشاؤم في العربية ، يرفع راية الرفض للحياة والاعتزال لها والازراء عليها ، ويمارس في حياته ما ينادى به في أشعاره ، ولا ينضوي تحت تلك الراية سواه ؛ إنما كانت غالبية المتشائمين في العربية الذين نبذوا الإيمان ورفضوا العزاء وهانت عليهم الحياة فلم يجدوها أهلاً لسعى ولا لحفاوة ، هم طائفة المتشائمين المستهترين ، الذين ظهروا حين طلعت تيارات الترف والمادية والشكوك ، على المجتمع والعقائد في العهد العباسي كبشار وأصحابه ، وأبي نواس وأضرابه ، أولئك ساقهم تفكيرهم إلى تصغير الحياة وما يقدر الناس من مثلها العليا ، فلم يبنذوا الحياة جملة بل راحوا يطفثون غليل نفوسهم المتحرقة في لذات الحياة الدنيا ، ويشبعون غرائزهم الحيوانية متكهين بما عذا ذلك مما يسميه المجتمع فضائل وعظائم وعقائد . وأبو نواس هو القائل :
وما هنأتك الملائه بمثل إماتة مجد وإحياء عار
والقائل :

قلت والكأس على كفى تهوى لا تشامى :
أنا لا أعرف ذاك اليوم في ذاك الزحام
وإنما حرصهم على سلوك تلك السيل ما كان يسود عصرهم من حرية تقرب من الإباحية ، وما كان يسود المجتمع العربي دائماً من صراحة لانظير لها في المجتمع الإنجليزي ، حيث التقاليد الاجتماعية شديدة الصرامة ، فعلى حين كانت يتأني لبشار وأبي نواس وأضرابهما أن يباشروا وهم معافون حياة الاستهتار التي يباشروها ، ويتكلموا بعقائد غيرهم ماشاءوا ، ويتزعموا بمخازيم شعرا ، نرى يبرون الذي لم يجز إلى مداهم يلفظ من المجتمع الإنجليزي الذي بجّله من قبل لشعره وحسبه
وحياة المعري وبشار موضع لموازنة ممتعة : كلاهما عاش

صديق صحيح معافى وقد نخلت أنا وبليت ؟ وهل وجّه بعد فراشي فراشاً وثيراً ؟ - أجل أنا يا صاح لي ضجعة كأزوح ما يشبه الفتى : أسلى حبيبة رجل قضى ، ولا تسألني حبيبة من ، ومن أمثلة الوراة المختلة والمزاج السوداوى في تاريخ الأدب الإنجليزي كوبر ويرون : كلاهما كان مضطرب التكوين اضطراباً أدى إلى ظهور الغرابة في مسلكيهما وأديهما : على أنهما رغم اتفاقهما في ذلك كانا يختلفان ثقة بالنفس : كان أولهما ضعيفاً متناهياً في الخجل ، وكان الثاني مفرطاً في الزهو والاعتداد بمواهبه ونسبه ، فقنع كوبر بحياة العزلة ولم يعلن على الناس حرباً ، وإن ظهرت أعراض التشاؤم في كثير من شعره ؛ أما يرون فصادم المجتمع بمسلكه الخلقى كما هاجمه في شعره ؛ ولما لفظه المجتمع الإنجليزي زاد عنواً وجراً ، وتحدياً لخصومه وتشقياً من مؤيدى النظم الاجتماعية التي كان يمتقها . هذا فضلاً عما حفلت به آثاره عامة من تصوير لضعف الإنسان وقصر مدته وعبث جهوده .

ورمز التشاؤم في العربية هو ولا شك المعري ، الذي اجتمع عليه من أسباب التشاؤم ما لم يجتمع على غيره : من اعتلال التكوين الجسمي ، واختلال الصحة ، والحرمان من شتى اللذات ، واضطراب العصر الذي عاش فيه ، فجاءت فلسفته مثالا نادراً لفلسفات المفكرين المتشائمين : حقر الإنسان . وأندر يبطش الأقدار ، وذكر بالموت ، وشك في الدين ، وأزرى بالمرأة ، وندد بالمجتمع ، وفند الحكماء ، وأطرب في تنازع البقاء ؛ ورث مع ذلك للإنسان ورأف بالحيوان ، وضاق بنفسه كما ضاق بغيره وحرّم على نفسه اللذات وعاش نباتياً ومات عربياً لم يمن على أحد ، وعبر عن نظراته النافذة الحكيمة التي سبق بها عصره ، تعبيراً شعرياً عربياً جزلاً متمعاً ؛ وكان صادقاً صريحاً : اعترف بأنه لم يختر تلك الحياة الضنكة إلا لأن سواها قد شأه ، فهو القائل .

ولم أرغب عن اللذات إلا لأن خيارها عني خنسته
فقد كان لدقة حسه شديد الحرص على كرامته ، شديد التوق لمواطن السخر والزراية ، فكان ذلك حائلاً بينه وبين ما نصبو إليه غرائزه من متعات ، وكانت حياته معركة طويلة قائمة داخل نفسه ، بين الرغبة في الاستمتاع بطيبات الحياة والاصرار على

ضوء مبرر على مأساة شهيرة

هل قتل الحاكم بأمر الله أم احتفى ؟

نظرية الرعاية السريية ومزاعمهم

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تممة

تلك هي النظريات والشروح الغريبة التي لجأ إليها الدعاة لتفسير اختفاء الحاكم وغيبته ؛ ولا ريب أن اختفاء الحاكم على هذا النحو الفجائي كان ضربة شديدة للدعاة ؛ فقد كان الحاكم ملازمهم وحاميهم ، وكان شخصه محور دعوتهم وعماد مزاعمهم ؛ فلما اختفى الحاكم انهارت الدعوة في مصر بسرعة ، وتفرق الدعاة في مختلف الأنحاء انتقاء المطاردة به ، ولكن الدعاة ألفوا في هذا الظرف ذاته مستقًى جديداً لدعوتهم ؛ فقد اختفى الحاكم ولكن إلى رجعة ؛ وليس على المؤمنين أن يعرفوا أين اختفى وكيف اختفى ؛ ولكن عليهم بالصلاة والاستغفار حتى يرضى عنهم ، ويعود إليهم عند ما تحل الساعة ، ذلك لأنه اختفى غضباً عليهم لما أمتعوا فيه من الآثام والخطايا ، ولن يظهر إلا عند ما تصفو قلوب المؤمنين وتصفونياتهم ؛ وفي هذا الاختفاء ذاته ، دليل ساطع على ألوهيته وخارق قدرته ، وهو في السماء أو في الأرض روح بلا جسم ، يشرف على عباده ، وإنه ليراهم من حيث لا يرونه ، وهذا وقد مضى إلى اليوم على مصرع الحاكم تسعة وخمسة عشر عاماً ، ولا يزال الموحدون يؤمنون برجعته ويرقبونها ؛ ولم يقل لنا الدعاة أنى ومتى تكون هذه الرجعة من عالم الأبدية ، وكل ما هنالك أن حمزة يقول للمؤمنين في رسالته الشهيرة ، « إنه متى أطلت عليهم رحمة الله خرج ولي الله إمامهم باختياره راضياً عنهم ، حاضراً في أوساطهم . . » ، ويكرر الدعاة هذه الإشارة الغامضة إلى مثل الحاكم ورجعته في رسائلهم ، ولا سيما رسالة الغيبة التي أشرنا إليها ، فيقولون : « إن مولاً لم يخلو منه الدار وقد عدمته أبصاركم ، « إن مولاً لم يراكم من حيث لا ترونه ، « أحسنوا ظنكم بمولاً لم يكشف لكم عن أبصاركم ما قد غطاها من سوء ظنكم ، وأمثالها من الاشارات والعبارات الرمزية

كفيها ، أى مكفوفاً إلى مدى بعيد عن كثير من مسرات الحياة ومتعات المصريين ، خلقت فيهما تلك الحال وحشة وشذوذاً وزرابة على الحياة والأحياء ، ولكن المعرى كان دقيق الحس مرهف الأعصاب ضعيف البنية ، فنفض يده من الحياة ونجا بالسلامة والكرامة ، وبشار كان مفرط الجسم متنزى الحيوانية مضطرب الشهوة ، فأكب على إشباع شهواته مستهدفاً للرؤية الآخرين وتهكمهم ، وشهر عليهم سوط لسانه المقذع ، كما يشرع السبع المنهمك في تمزيق فريسته مخبلة للنبذ غيره من السباع عنها . تلك مظاهر التشاؤم ، أو فقه الإيمان بسمو الحياة والعزاء النفسى عن شوائبها ، في الأديين العربى والإنجليزى ، وفيما عدا ذلك كان أقطاب الأديين - لما يتدقق في شرايينهم وشرايين أميتهم من دفعة الحياة - متفائلين متشبتين بأهداب المثل العليا التي ترضاها لهم طبائعهم وبيئاتهم ، يغير لهم وجه الحياة حيناً فيبدو أثر ذلك عابساً في آثارهم ، ثم يحنون إلى التعزى والإيمان ؛ فلتون في الإنجليزية مثلاً على فرط ما لاقى من خذلان في حياته الفردية والعامة وما حل به من فقدان البصر ، ظل وطيد الإيمان متطلباً للعزاء إلى منتهى حياته ، وكتب ملاحمه في أواخر أيامه طلباً للترفيه عن نفسه ولكي يبرر للناس أعمال الله ، والمتخني في العربية رغم ما أصاب من إخفاق متوال في مطلب حياته الاسمى ، الذى « جل أن يسمى » ، ورغم ما كابد من حسد وكيد وعداوة ، وما صب على الناس من قوارص كله ، ظل أبداً « من نفسه الكبيرة في جيش وفي كبرياء ذى سلطان » ، متدرباً متأهلاً للجلاد .

وإن يكن هناك مجال للقبالة ، فالأدب العربى لا شك أكثر اصطفاً بالتفاؤل والإيمان ، على كثرة ما به من الشكوى ؛ والأدب الإنجليزى أحفل منه بآثار التشاؤم ، ولا سيما في العصور الحديثة التي زادت الحياة فيها تعقداً ووطأة ؛ وإنما يبت ذلك التفاؤل في المجتمع والأدب العربيين أمران : صحو الجو الذى يعدل المزاج ويبعث البشر والطلاقة ، والدين الإسلامى الذى يبت الإيمان في النفوس ويحض على اجتلاء متعات الحياة التي أحل الله ، والذى هو كما تقدم القول أكثر تغلفاً في سرائر معتقيه ، وشمولاً لجوانب حياتهم من غيره من الأديان .

فهمى أبو السعود